الخمرة النصرانية ومجالسها

في العصر العباسي

للأستاذ شكري محمود أحمد

اشتهرت الخمرة النصرانية بالجودة والقدم ، كما عرفت برائحتها الذكية وطعمها اللاذع ، فتغنى الشعراء بذكرها ، وفتنوا بنعتها ، فوصفوا الكأس والنديم والنقل والزهر والتحايا (١) والصبوح والغبوق وكل مايتعلق بمجلسها من عزف وزف وغناء وقيان وسقاة وتهتك ومجون ، وما يتبع ذلك من حوادث مشهورة ، وأخبار مذكورة وقصائد طريفة ونعوت جميلة حفلت بها كتب الأدب والسير والشعر .

وقد نعتت الخمرة بالقدم ، فهي تذكر نوحاً حين شاد الفلك ، بل هي ترب الدهر في قدمها ، عاشت معه ، ودرجت في حجره ، حتى لو أنها احتبت بين الندامى لقصت عليهم قصة الأمم ، وروت لهم حوادث التاريخ . . . وهي عجوز قد علت على الحقب حتى عكفت عليها بنات الدهر ، وعجمت النير حتى اختمرت بخمار الشيب وهي في رحم الكرم ... ثم هي شقيقة النفس تنفي الهم وتذهب الحزن فتجعل السقيم صحيحاً ، والقبيح جميلا ، والصغير كبيراً . . .

وربما عبدها بعضهم ، فأثنى عليها بآلائها ، وسماها أحسن أسمائها ، ونزهها عن النفر القدم الذي لا يعرف لها قدرها ، وخص بها السادة الكرام من كل مطير الكف يطرب للندى ...

وكانت الخمرة عندهم لذة العمر وغاية الغايات ، لا تطيب لهم الحياة إلا بها ، ولا يصفو العمر إلا بين كأس وعود وقينة . . . وقد رضي أبو نواس من الدنيا بكأس وشادن . . وكان النغم

(١) التحايا جمع تحية وهي الرياحين والزهور التي كانت تزين بها مجالس الشراب وكانت تسمى أيضاً العمارة والعمار ومنه قول الأعشى :

فلما أتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا

وكانوا إذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً من الريحان وحيوه به ، والنابغة في مدح آل جفنة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

ويوم السباسب عيد للنصارى وهو يوم الشعانين .

عنده أن يتمته السكر ، والغرم أن يلقى صاحياً . . بل تمنى بعضهم سكرة شيطانية قبل موته تترك الصبيان خلفه يتصايحون : يا سكران . ثم يغسل بالخمر ، ويكفن بأوراق الكرم ، ويدفن بعد ذلك إلى جنب كرمة لتروى عروقها عظامه ، وتجمل أقداح الخمر حول قبره ..

* * *

عرف النصارى بتعتيق الخمر ، كما عرفوا بنظافة الآلة وجودة الشراب ، وجمال الحانات ، وتزيين مجالسها بأصناف الزهر والنقل ، ووصفوا بحسن الخلق ولين الجانب ، ولطف المساومة وصباحة الوجوه وجمال القسمات ، لذلك كان الشعراء والمجان وأهل التهتك والتطرح يقصدون الأديار في الليل والنهار ، ويختلطون بالرهبان والراهبات وفتيان الأديار يناد مونهم ويشربون على وجوههم ، فيطربون ويلذون ...

وكان الخلفاء أنفسهم يستقدمون من اشتهر من بينهم وعرف منهم لذلك لما أراد الواثق بالله الخليفة العباسي أن يتخذ حانتين له ولأصحابه ، إحداهما على شاطىء دجلة والأخرى في دار الحرم (١) « أمر أن يختار له خمار نظيف ، جميل النظر ، حاذق بأمر الشراب ، ولا يكون إلا نصرانياً من أهل قطربل ، فأتى له بنصراني له ابنان مليحان ، وبنتان بهذه الصفة ، فجعلهم الواثق في الحانتين ، وضم إليهما خدماً وغلماناً وجواري رومية . وأخدم النساء في حانة الحرم ، والرجال في حانة الشط » . (٢)

أما بيوت الشراب التي كانت تخزن فيها الخمور فلم أجد من وصفها لنا غير أحمد بن جعفر بن شاذان في كتابة « أدب الوزير » قال :

« وينبغي لبيت الشراب أن يكون له بابان واسمان و كوتان ، فأما الباب الواسع ففي يسار القبلة من قبل ريح الجنوب ، وأما الباب الضيق فمن قبل الشرق عن يمين القبلة من قبل ريح الشمال » .

« وينزه بيت الشراب عن كل ريح كريه وكل قذر ، وليكن بين كل وعائين من أوعية الشراب ذراع ولتكن مواضع الأوعية

(١) تقع دار الحرم بالنسبة لمل خطط بغداد في هذا العهد في محلة « الدهانة » وكانت فيها القبة المعروفة بقبة الحمار .

(٢) مسالك الأبصار ص ٣٩٣

حانة ، فإن كانت ندية فلتفرش بالآجر أو الحجارة ، وتقدير المعصرة أن يكون طولها ضعف عرضها ».(١)

وقد كان الرهبان أنفسهم يعصرون الخمرة ، ويحفظونها في مخازنها التي كانت في الغالب تحت الأرض ، وقد وصف الشعراء الهينمة حول الدنان وتلاوة المزامير والإنجيل ، ومن ذلك قول أبي نواس :

وخمر كعين الديك أصبحت سحرة   وقد همّ نجم الليل بالخفقان
ندبت لها الخمار فانصاع مسرعاً   إلى عدد من أكؤس ودنان
دراسته الإنجيل حول دنانه   بصير ببزل الدن والكيلان(٢)

وفي مثل هذا المعنى قال عبد الصمد بن بابك :

هينم القس حولهـا وتغنى   بمزامـــير دنهـا الزمار
ثم لما انتمت إلى دين عيسى   شـد في حقو كأسها زنار

ومن طريف ما جاء في وصف الجودة بالقدم قول شهاب الدين التلعفري ، فقد جعلها تروي حديث آدم وإبليس ، وما كان بين سليمان وبلقيس ، وأن الرهبان يتلون الأناجيل لها إذا حضرت ، ويسبحون ويقدسون بأعظم ما يكون التسبيح والتقديس ، قال :

عج حيث تسمع أصوات النواقيس
من جانب الدير تحت الليل بالعيس
مستخبراً عن كميت اللون صافية   قد عتقتها أناس في النواويس
مرّ الزمان عليها فهي تخبر عن   ما كان من آدم قدماً وإبليس
ترى الرهابين صرعى من مهابتها   إذا بدت بين شماس وقسيس
تتلى الأناجيل تعظيماً إذا حضرت   لها بأشرف تسبيح وتقديس
لها أحاديث ترويها إذا مزجت   في كأسها عن سليمان وبلقيس
يسعى بها من نصارى الدير بدردجي
يميس في فتيـــة مثل الطواويس

وامتاز سقاة الخمر من النصارى بحسن صفتهم ، ونظافة آنيتهم ، وطهارة دنانهم ومبازلهم ، لأنهم انفردوا — في الغالب —(٣) بعصرها وتعتيقها ، لذلك أقبل عليهم المجان والخلفاء ، حتى صارت الأديرة مطارح أهل اللهو ، ومواطن ذوي الخلاعة ، كما أصبحت ملتقى العشاق ومأوى الفساق ، لأن مجالس الشرب واللهو كانت تعقد في الرياض والبساتين في جوار الأديرة وخلف البيع والمعابد ، لأن الحانات كانت ملاصقة لها .

حدثنا العمري في مسالكه قال : « كان بالكوفة رجل أديب ضعيف الحال ، مهما وقع في يده شيء من المال أتى به دير حنة فيشرب حتى يسكر ثم ينصرف ، وهو القائل :

مالذة العيش عندي غير واحدة   هي البكور إلى بعض المواخير
لخامل الذكر مأمون بوائقه ،   سهل القياد ، مَن العزه المدابير
حتى أحل على دير ابن كافرة   من النصارى يبيع الخمر مشهور
كأنما عُقد الزنار فوق نقا ،   واعتم فوق دجى الظلماء بالنور(١)

وربما أثرت هذه المجالس المرحة والحياة الناعمة برهبان الدير ومن فيه ، فتركوا ماهم عليه من نسك وعبادة وزهد ، وانغمسوا في ملاذهم ، وتبعوا أهواءهم ، فخلعوا العذار ، ونهزوا مع الغواة بدلائهم ، وأساموا سرح اللهو كيفما شاءوا .

وقد اشتهر من هؤلاء قس كان بالحيرة ، ذكر خبره الخفاجي وياقوت ووصفه بعضهم قائلا :

إن بالحـيرة قساً قد مجن   فتن المجان فيـــه وافتتن
هجر الإنجيل من حب الصبا   ورأى الدنيـا متاعاً فركن

وكان لهذا القس قلاية في ظاهر الكوفة ذكرها محمد بن عبد الرحمن الثرواني ، وطلب أن يكون ريحانه من قلاية هـذا القس قال :

خليـلي من تيم وقيس هـديتما
أضيفا بحث الكأس يومي إلى أمسي
وإن أنتما حييتماني تحيـــة   فلا تعدوا ريحان قلاية القس(٢)

وكانت هذه الأديار تقصد في الليل والنهار ، ويقدم إليها أهل الطرب والمتعة من الأماكن البعيدة في السفن والسميريات أو على الخيول . وهناك يختلطون بالرهبان والراهبات ، يشربون معهم ويتنزلون بهم ، وربما صرعوا الراهبات بالخمر ، فيبدلن الخفر

(١) أدب الوزير ص ٣٩ ، ٤٠
(٢) ديوان أبي نواس طبعة آساف ص ٣٤٢
(٣) ربما كان الساقي من غير النصارى ، بل ربما كان مسلماً . جاء في الشابشتي ورقة ٢٠ ، ٢١ « ذكر أبو الشبل البرجمي قال : صرت وأنا مخمور إلى قطربل ، فدعونا خماراً فقلنا : ائتنا بنت عشر قد أنضجها الهجير فجاء بها ، فقلنا : اسقنا ، فسقانا . فقلنا : اسقنا واشرب ، فقال : أنا مسلم وكان يهودياً قد أسلم » .

(١) مسالك الأبصار ص ٣١٢
(٢) شفاء الغليل ص ١٦٢ ومعجم البلدان ج ٣ ص ١٤٣

بالتهتك ، والحياء بكشف النحور والسيقان . وفى مثل هذا يقول جحظة البرمكى الذى لا يريد أن يبقى فى حانة واحدة يقضى فيها لذته بل يريد أن ينتقل من البردان إلى أوانا ثم إلى دير العلث . وهو لا يكفيه دن [1] من الخمور بل دنان . . ودنان . . قال :

أيها الحاذقان بالله جدا   وأصلحا لى الشراع والسكانا [2]
بلغانى — هديتما — البردانا   وأنزلا لى من الدنان دنانا
وإذا ما أقمت شهراً تماماً   فاقصدا بى إلى كروم أوانا
واحططا لى الشراع بالدير بالعلث   لعلى أعاشر الرهبانا
وظباء يتلون سفراً من الانـ   جيل باكرن سحرة قربانا
لابسات من المسوح ثياباً   جعل الله تحتها أغصانا
خفرات ، حتى إذا دارت الكا   س كشفن النحور والسيقانا [3]

وقريب من هـذا قول أبى نواس وقد خرج إلى دير نهرازان [4] فى بعض أعياده مع جماعة من عصابته ، لكنه لم يصرع راهبة بل كان « يلهو » بظبى من ظباء الدير كان يدير عليهم الخمر — قال :

بدير نهرازان لى مجلس   وملعب وسط بساتينه
رحت إليه وهى فتية   نزوره يوم شمانينه
بكل طلاب الهوى فاتك   قد آثر الدنيا على دينه
وجىء بالدن على مرفع   وخاتم العلج على طينه
وطاف بالكأس لنا شادن   يدميه مس الكف من لينه
فلم يزل يسقى ونلهو به   ونأخذ القصف بآيينه [5]

وربما هاجت بهؤلاء المجان طربات ، وثارت بهم نزوات ،

(١) الدن : الراقود العظيم يكون من الفخار أو الصلصال فى أسفله كهيئة قونس البيضة ، له عسس ، لا يقعد إلا أن يحفر له فى الأرض . قال ابن دريد : الدن عربى صحيح . وأنشد « وصلى على دنها وارتسم » وقد نقله عنا الغربيون ببعض التحريف فقالوا « Tonne » ثم عاد المعاصرون منا فأخذوه من الغربيين فقالوا « طن » ، ويراد به برميل ضخم يسع من السوائل ألف كيلوغرام ، وكل ما يزن ألف كيلوغرام يسمى اليوم فى العراق « طن »

(٢) السكان مستعمل اليوم فى عامية أهل العراق بهذا المعنى ، وكل ما يوجه آلة يسمونه سكاناً .

(٣) الشابشتى ورقة ٤٣

(٤) لم أعثر على هذا الدير فى معجم ياقوت ولا الشابشتى ولا العمرى ولم أجد هذا الاسم إلا فى شعر أبى نواس ، ولعله من ديارات الشام .

(٥) ديوان أبى نواس ص ٣٤٧ والآيين فارسى معرب معناه السياسة والأسلوب .

وهم يترفون الدنان ، على غناء القيان ، وعزف الأوتار ، ونقر الدفوف ، وحث الكؤوس … وربما ذكروا الصلاة وهم فى حالهم هذه ، وقد فاتهم أوانها ، فيسرعون إليها متعثرين كأنهم يقلعون أرجلهم من طين . . وفى مثل هذه الصفة يقول إسماعيل ابن عمار الأسدى يذكر سكرة له بدير اللج مع صحب من عصابته ومعهم سعدة والزرقاء « سلامة » وربيحة ، وهن جوار مغنيات كن لابن رامين مولى عبد الملك بن بشر بن مروان وهى أبيات ظريفة منها :

ما انس سعدة والزرقاء يومهما   باللج ، شرقيه فوق الدكاكين
تغنيانا ، كنفث السحر تودعه   منا قلوباً غدت طوع ابن رامين
نسقى شراباً كلون النار عتقه   يعمى الأصحاء منه كالمجانين
إذا ذكرنا صلاة بعد مافرطت   قمنا إليها ، بلا عقل ولا دين
نمشى إليها بطاء ، لا حراك بنا   كأن أرجلنا يقلعن من طين
أو مشى عميان دير لادليل لهم   سوى العصى إلى عيد الشعانين
أهوى ربيحة إن الله فضلها   بحسنها ، وغناء ذى أفانين [1]

وربما سكر هؤلاء المجان مع قسيس الدير ، وقد شمطت يداه وأرعشه الإدمان ، فيبكى ويغنى ، ويشرب دمعه وخمره ، تمده أريحية مخمورة ، وعاطفة مسجورة ، وفى مثل هذه الحال يقول جحظة فى دير المذارى الذى فى سامراء ، وفيها أبيات وجيعة تنتفض ألماً ورقة ، قال :

الاهل إلى دير المذارى ونظرة   إلى الخير من قبل الممات سبيل
وهل لى بحانات المطيرة سكرة   تعلل نفسى ، والنسيم عليل
إلى فتية ما شتت العذل شملهم   شعارهم عند الصباح شمول
وقد نطق الناقوس بعد سكوته   وشمعل قسيس ، ولاح فتيل
يريد انتصاباً للقيام برغمه ،   ويرعشه الادمان فهو يميل
يغنى وأسباب الصواب تمده   وليس له فيما يقول مثيل :
(الأهل شم الخزامى ونظرة   إلى الخير من قبل الممات سبيل)
وثنى يغنى ، وهو يلمس كأسه ،   وأدمعه من وجنتيه تسيل :
(سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى   ويحدث بعدى للخليل خليل)
سقى الله عمراً لم تكن فيه علقة   لهم ، ولم ينكر على عذول [2]

(١) معجم ما استعجم ص ٦٤٩

(٢) معجم البلدان ج ٥ ص ١٠٧

وقد كان هؤلاء النصارى يتوسلون بكل ذريعة لاجتذاب المجان، وأهل اللهو وعشاق الخمور، وفى طليعة ما يتذرعون به تجويد الشراب واختيار السقاة والمغنين والمغنيات وتهيئة ما يلذبه الشارب والماجن من وسائل التلذذ والطرب، وربما كانت ابنة القس تدير الكأس على أحلامها، أو راهبة الدير تبيع لهم الخمور، وما أطيب الكأس من كف خود رعبوب . . . قال شهاب الدين العمرى فى الدير الأبيض من أديرة مصر:

وكأس المدام علينا تطوف ... بحمراء صـــافية كاللهب
يطوف بها من بنات القسو ... س باخلة الكف ليست تهب
مبتلة بين رهبـــانها ... لألحاظها فى حشانا لهب
مسيحية طلعت فى المســو ... ح، كصبح أطل وليل ذهب (١)

وربما جرت فى مجالس الخمرة أمور مما «يحسن» الظن عندها كما يقول ابن المعتز «فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر»، وقد يبلغ الفسق منتهاه فى غالب الأحيان، فلا رادع للقوم من دين، ولا وازع لهم من أخلاق، يحتسون الخمور على أصوات العود والناى، وتبلغ الفوضى بهم غايتها، فلا تجد إلا قبلا وعناقاً، وانسان سوء «خلف» انسان ... قال جحظة فى دير الزندورد (٢)

سقياً ورعياً لدير الزندورد وما ... يحوى ويجمع من راح وغزلان
دير تدور به الأقداح مترعة ... بكف ساق مريض الجفن وسنان
والعود يتبعه ناى يوافقه ... والشدو يحكمه غض من البان
والقوم فوضى ترى هذا يقبل ذا ... وذاك انسان سوء خلف انسان (٣)

وحدث أن مر الشاعر الكندى المنبجى بدير مار ساعوث فاستحســنه ورأى غلاماً فى رهبانه جميلا يلثغ بالسين يجمله ثاء

(١) مسالك الأبصار ص ٣٨٣

(٢) كان دير الزندورد بالجانب الشرقى من بغداد، وكانت أرضه مزروعة بالفواكه والأترج والأعناب. أما موقعه بالنسبة لخطط بغداد اليوم فيقع فى محلة الباوين والسعدون. وكان بستان الأرفلى ومدرسة الراهبات من ضمن أراضيه، واليوم أصبحت محلة معمورة. وقرب تمثال عبدالمحسن السعدون كانت كنيسة للنصارى منعتها أمانة العاصمة قبل عشرة أعوام تقريباً.

(٣) معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٤

قال: «فشددت سيريتى إلى جانب الدير، واشتريت شراباً من الرهبان، وبت هناك منادماً لذلك الغلام. فلما أردت الرحيل أنشدته:

ومورد الوجنات من رهبانه ... هو بينهم كالظبى بين ليوث
ذى لثغة فتانة فيسمى الطا ... ووس حين يقول بالطاووث
حاوات منه قبـلة فأجابنى: ... لا والمثيح وحرمة الناقوث
حتى إذا ما الراح سهل حثها ... منه المسيرَ بكأسه المحثوث
نلت الرضى وبلغت قاصية المنى ... منه برغم رقيبه الديوث (١)

وإذا أردنا استقصاء ما كان يدور فى الديارات من تهتك وتطارح ومجون لمز الطلب واحتاج ذلك إلى كتاب فى أجلاد

(بغداد) **شكرى محمود أحمد**

مدرس العربية بدار المعلمين الابتدائية

(١) مسالك الأبصار ص ٢٦٢ ومعجم البلدان ج ٥ ص ١٧٦

جامعـــة فاروق الأول

إدارة المستخدمين

إعـلان

تعلن جامعة فاروق الأول عن وظائف كتابية من الدرجة الثامنة خالية بها وعلى من يرغب فى الالتحاق أن يقدم طلباً بإسم السكرتير العام للجامعة فى موعد غايته ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧ ويشترط فى المرشح أن يكون حاصلا على شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان أو دبلوم التجارة المتوسطة وعلى الموظفين التقديم عن طريق مصالحهم

٧٨١١